جماليات البنية الإيقاعية في القرآن الكريم

دراسة في الجزء الأخير من سورة مريم

د. المهدي إبراهيم الغويل*

يطلق مصطلح الإيقاع ويراد به تآلف الحروف في الكلمات وتناسق الكلمات في الجمل وتوزيعها داخل التراكيب بمسافات تؤدي إلى أحداث تنغيمات وأصوات مؤثرة. ويتحرج البعض من إطلاق مصطلح الإيقاع مع القرآن ذلك لأن هذا المصطلح عرف إطلاقه على اللحن الموسيقي. ولكن لو عدنا إلى الدلالة المعجمية فسيكون الموقف مختلفا؛ فقد جاء في لسان العرب: والإيقاع من إيقاع اللحن والغناء وهو أن يوقع الألحان ويبينها والوقيع الحافر الصلب ويقال طريق مُوقّع مذلل ، والواقع الذي ينقر الرحى ويقال سمعت وقع المطر وهو شدة ضربه الأرض إذا وبل ويقال سمعت لحوافر الدواب وقعا ووقوعا(1).

من هذا يمكننا أن نتعرف على أن الإطلاق الاصطلاحي لا يخرج عن مدلول المواضعة اللغوية فالإطلاق عموما يدور حول وقوع أثر الشيء أو الفعل ، أو ما تحدثه الأصوات من تطريب؛ فإذا كانت أصوات الغناء تحدث إيقاعا ، فكذلك كلمات القرآن لها أثرها الصوتي المؤثر في النفوس. ولقد كثر دوران هذا الإطلاق على الشعر في أوزانه وقوافيه. وهو ما عرف بالموسيقى الخارجية أو في

---

* الجامعة الأسمرية.

1- انظر. لسان العرب. لابن منظور. ط. دار صادر. بيروت. مجلد 8. مادة وقع. ص 402-408

حركات المدود والأصوات وكيفية تناسقها وائتلافها داخل الشطر أو السطر وهو ما عرف بالموسيقى الداخلية.

وإذا كان للشعر إيقاعه فإن للنثر إيقاعه، فهو كما يقول كمال أبوديب: « يقوم على الفقرة أو السطر لأنه يستند بقوة إلى الفصل والوصل؛ فقد كانت مبادئ الفصل والوصل في الشعر الخليلي تقوم على طول التفعيلات وحدودها، وعلى الشطر ثم على السطر. والشطر والسطر محددان بالقافية ونهاية البيت، أما إيقاع النثر فيقوم على فصل ووصل من نمط مختلف ينشئه البعد الدلالي المتعلق بامتداد النفس والضغط النابع من تموجات التجربة والقراءة والحركة الداخلية للهجة الشعرية »(2).

« والإيقاع يحدث بالإفادة من جرس الألفاظ وتناغم العبارات لإحداث التوافق الصوتي بين مجموعة من الحركات والسكنات لتأدية وظيفة سمعية والتأثير في المستمع »(3).

فاللغة لها ذلك الطابع الموسيقي بما تشتمل عليه الكلمة من حركات وسكنات وحروف مد وحروف لا تمد، فكل ذلك يترك في النفس أثرا متنوع الأوضاع يجعل الإنسان يشعر بأن أعصابه تستريح مع النغم الذي تثيره الكلمة بجانب ما توحي به إلى النفس من المعاني والأفكار والذكريات. فإذا تتابعت الكلمات وهي على حالتها تلك بحسها ولين مخارجها، أو تتابعت بفخامة ألفاظها وقوتها وجزالتها، فإنها تكون صورة تصحبها موسيقاها. ثم لا تلبث أن تصحبها مواقف نفسية متأثرة بها منفعلة لها من رضاء واطمئنان وهدوء إذا كان الإيقاع عذبا وهادئا ناعما وقد ينعكس الأثر فيكون الفزع والاضطراب إذا كان الإيقاع غليظا صاخبا يقذف بالصواعق والرعود(4).

2- في البنية الإيقاعية للشعر العربي. د. كمال أبو ديب. ط. دار العلم للملايين. بيروت. ص 221.

3- الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي. د. عبد القادر فيدوح. منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق. 1992 م. ص 154.

4- انظر. النقد الأدبي. دراسات نقدية وأدبية حول إعجاز القرآن. د. صلاح الدين محمد عبد =

ولما جاء القرآن الكريم جاريا على أسلوب العربية في التأليف وكانت هذه اللغة موسيقية تقوم على الإيقاع فقد تميز أسلوب القرآن بالإيقاع المعجز والجرس المثير للانتباه.

كما أن النسق القرآني جمع بين مزايا الشعر والنثر جميعا فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة ، وأخذ في الوقت ذاته من خصائص الشعر الموسيقى الداخلية ، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل ، و التقفية التي تغني عن القوافي(5).

وبما أن الإيقاع يشكل عنصرا من عناصر الدلالة وليس محسنا هامشيا يأتي في النسق التعبيري فقد اعتنى به القرآن عناية بالغة وكان هذا الإيقاع المتميز هو أول ما ظهر لأهل مكة من بلاغته وإعجازه حتى إن أعداء الدعوة وهم أهل اللسن والفصاحة شهدوا بذلك. والفضل ما شهدت به الأعداء ، حيث قال قائل منهم: والله إنه له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وعندما استنكر قومه هذا قال: إنه سحر نأثره على غيره(6).

= التواب. ط. دار الكتاب الحديث. القاهرة. 2003م. ج2. ص 176

5- انظر. التصوير الفني في القرآن. سيد قطب. ط. دار المعارف. مصر. ص 87.

6- هذا القول يعزى للوليد بن المغيرة عندما عبر عن الأثر الغريب والمتميز للقرآن فقال : والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو وما يعلى عيه. وعندما لامه قومه على ذلك قال لهم ذروني أفكر ثم قال : هذا سحر نأثره على غيره. وحكي عنه القرآن ذلك في قوله تعالى في سورة المدثر : ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: 18-25] وفي سياق ذكر الجاذبية العجيبة للقرآن يروى أن ثلاثة من بلغاء قريس وهم الوليد بن المغيرة والأخنس بن قيس وأبو جهل بن هشام اجتمعوا ليلة يسمعون القرآن من رسول الله ﷺ وهو يصلي به في بيته إلى أن أصبحوا ، فلما انصرفوا جمعتهم الطريق فتلاوموا على ذلك وقالوا إنه إذا رآكم سفهاؤكم تفعلون ذلك فعلوه واستمعوا إلى ما يقوله واستمالهم وآمنوا به ، فلما كان في الليلة الثانية عادوا وأخذ كل منهم موضعه ، فلما اصبحوا جمعتهم الطريق فاشتد نكيرهم وتعاهدوا وتحالفوا أن لا يعودوا. انظر. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. مصطفى صادق الرافعي. ط. دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان. الطبعة الثانية. 1974. ص. 213.

ولهذا لم يستطع العرب إخفاء ما أحسوا به عند سماعهم للقرآن وما كان لأول ما طرق أسماعهم من إيقاعه المؤثر الذي لم يجدوا له تعليلا سوى الذهول. يقول الرافعي في كتابه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: « فلما قرئ عليهم القرآن رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، ألحانا لغوية رائعة، كأنها لائتلافها قطعة واحدة، ولم يفُتْهم هذا المعنى، وأنه لا قبل لهم به، وكان ذلك أبين في عجزهم، حتى إن من عارضه منهم كمسيلمة جنح في خرافاته إلى ما حسبه نظما موسيقيا وطوى ما وراء ذلك من التصرف في اللغة وأساليبها ومحاسنها ودقائق التركيب البياني، كأنه فطن إلى أن الصدمة الأولى للنفس العربية إنما هي في أوزان الكلمات، وأجراس الحروف دون ما عداها »(7).

إن الإيقاع والتلاؤم مع الموضوع ملمح جمالي في التعبير القرآني. كما إن نظم القرآن ونغمه ينبعث من الحروف والكلمات والأسلوب، فحروفه متآخية في كلمات ذات إيقاع عماده الانسجام والتلاؤم؛ ومن ثم يتحدد الأداء التعبيري عبر السياق القرآني؛ فالإيقاع الهادئ، له موضعه الملائم له، والإيقاع الهادر الصاخب له موضعه الملائم له ، والإيقاع الساكن الرقيق له موضعه أيضًا. ويتبدى التلاؤم في أن الآية تتضافر ألفاظها في نغم هادئ إن كانت الآية في تبشير، أو داعية إلى التأمل والتفكير إن كانت في عظة، وتتلاءم نغماتها قويةً إذا كانت في إنذار أو وصف عذاب. ويتناسق الإيقاع متلائمًا مع الموضوع من حيث القوة والجرس الصوتي المدوي المنبثق من الألفاظ بحروفها، والجمل بتراكيبها، والخواتم بشدة جرسها وقرع الأسماع بها(8).

وقارئ القرآن عندما ينتقل في تلاوته من سورة إلى أخرى يشعر أنه ينتقل من جو إلى آخر، وكثيرا ما يحدث هذا الانتقال في ثنايا السورة الواحدة. حيث يحصل تغير في الإيقاع ونغمة الخطاب مما يشي بان للإيقاع الصوتي في القرآن الكريم أثراً فعالاً في بيان المعنى وتجليته، فهو مظهر من مظاهر إعجاز القرآن المتمثل بجرس ألفاظه وإيقاعها، ذلك الإيقاع الذي عني به القرآن عناية كبيرة،

7- نفس المرجع. ص. 214.

8- انظر. المعجزة الكبرى. محمد أبو زهرة. القاهرة. ص. 277 ، 288

ولما له من أثر في إمالة النفس في تقبل المفاهيم والأغراض التي جاء بها.

﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا (٧٨) كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدّٗا (٧٩) وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدٗا (٨٠) وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا (٨١) كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا (٨٢) أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا (٨٣) فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا (٨٤) يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا (٨٥) وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا (٨٦) لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا (٨٧) وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا (٨٨) لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا (٨٩) تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا (٩١) وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا (٩٣) لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا (٩٤) وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا (٩٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا (٩٧) وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ [مريم: 77-98].

تبدأ الآيات بنغمة استفهامية صاعدة تحمل معها شحنات دلالية كما نلحظ وبوضوح وجود إيقاع خاص منسجم انسجاما عجيبا مع سياق الآيات والتدرج الذي سارت به السورة التي تمحورت حول قضية التوحيد كما هو شأن السور المكية غالبا؛ حيث ابتدأت السورة بقصة زكريا ويحي فقصة مريم ومولد عيسى فطرف من قصة إبراهيم مع أبيه يعقوب ثم بعد ذلك إشارات إلى بعض الأنبياء عليهم السلام ثم تأتي بعض مشاهد القيامة وبعض الجدل مع المنكرين للبعث. كل ذلك في سياق يستهدف إثبات الوحدانية والبعث ونفي الولد والشريك بطريقة يتبين بها منهج المهتدين ومنهج الضالين المكذبين.

إن القارئ لنص الآيات يتحقق لديه توازن وتكامل بين المضمون والشكل الخارجي ويظهر له وبوضوح تلك الصنعة الخفية بسبب التظافر بين العناصر الإيقاعية في البناء اللغوي المتكون من الصوت والدلالة والتركيب النحوي والصرفي؛ وهذا التظافر نتج عنه ظواهر إيقاعية أثرت بشكل ظاهر في البنية الكلية للآيات يشكل الإيقاع عنصرا من عناصر الدلالة فيها ، وليس محسنا هامشيا يأتي

في إطار النسق التعبيري؛ فالبنية الإيقاعية هنا –وفي جميع آي القرآن وسوره– هي جزء لا ينفصل عن البنية اللغوية؛ ولذا فنحن نحس بوجود تناغم خبيئ في الآيات متألف من انسجام الأصوات الصغرى والكبرى التي تتألف منها ومن دلالات هذه الأصوات على ما تحمله من دلالات متسقة معها.

تأتي هذه الآيات في سياق استنكار أقوال الكافرين التي يتبجحون بها؛ فجاء القرآن متعجبا من قولهم. وفي سبب نزول هذه الآيات يروي الإمام مسلم عن خباب بن الأرث قال: كان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه ، فقال لي: لن أقضيك حتى تكفر بمحمد قال فقلت له: إني لن أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث. قال وإني لمبعوث من بعد الموت ، فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد. قال وكيع: كذا قال الأعمش قال: فنزلت هذه الآية(9).

فنغمة التقريع بادية في أسلوب الآيات حتى إننا نحس بأن جوا من العنف والشدة يخيم عليها ويمكننا من خلال استقراء المقومات الإيقاعية الوقوف عند ثلاثة مستويات من هذه المقومات.

1. مستوى الكلمات وحروفها وحركاتها.
2. مستوى الفواصل وإيقاعها.
3. مستوى التماثل الصوتي.

أولا: مستوى الكلمات والحروف والحركات

ولنبدأ بالحركات وأول ما يمكن ملاحظته هنا هو حركة الفتح حيث وردت مائتين وثلاثا وسبعين مرة. وقد مثلت هذه الحركات عند التأمل حركة الانسياب الأفقي للخطاب التقريعي لهؤلاء المشركين ، وكأنه موجة هادرة لا يوقفها إلا صوت الارتطام بصخرة الفاصلة الدالية؛ فخفة الفتحة ساعدت على الانتقال السريع بين الدوال مما أتاح للمعاني حالة من الاسترسال في الخطاب الهجومي.

9- انظر. صحيح مسلم. بشرح النووي. ط. دار البيان العربي. مصر. الجزء 9. ص. 128.

ولو نظرنا مثلا في التعبير بـ﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾ لأدركنا للوهلة الأولى حقيقة هذا التوصيف وما ينتجه التوظيف الدلالي لإمكانات اللغة في هذا السياق؛ حيث جاءت اللفظة بخمس فتحات وسكون واحد ، كما ندرك حركة الانتقال هذه في توالي أربع حركات بالفتح. وهذا ما قرره القرطاجني وهو يتحدث عن أوزان الشعر حيث قال: «وأوزان الشعر منها سبط ومنها جعد ، ومنها لين ومنها شديد ومنها متوسطات بين السباطة والجعودة وبين الشدة واللين وهي أحسنها ، والسبطات هي التي تتوالى فيها ثلاثة متحركات والجعدة هي التي تتوالى فيها أربعة سواكن بين جزءين أو ثلاثة من جزء»(10) وفي هذا قراءة واعية وتفهم لدور ما يعرف بالموسيقى الداخلية الناجمة عن حركات الحروف.

ومما يزيد من حدة الإيقاع الهادر على نفوس السامعين ما نلحظه من حركة التشديد في ثلاث وأربعين مرة معظمها تشديد بالفتح ، لتلتقيا معا سرعة الانتقال ووطأة التشديد وتؤديان دورهما في صياغة الموقف.

ولو تأملنا هذه الحركات المشددة في نسقها التركيبي فسيتبين لنا بجلاء كيف كان هذا التشديد عاملا مساعدا في سبك البنية الإيقاعية بشكل يدعم نبرة التقريع؛ حيث تكتسي الكلمات والمقاطع المشددة طابعا كميا يتمثل في زيادة حجم العتاد الهجومي لجيش العبارات المستخدمة في بنيتها النسقية؛ إذ تتحول الشدات إلى تموجات رأسية تزيد من فاعلية النص في تحقيق غايته التأثيرية.

ويمكننا أن نقف أكثر على حقيقة التشديد في الحرف عندما نقرأ قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: 38]. فيتصور الخيال ذلك الجسم المثّاقل يرفعه الرافعون في جهد فيسقط من أيديهم في ثقل. ولو كان التعبير بـ (تثاقلتم) لما كان هذا الجرس. وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: 72]. نلحظ في لفظ

10- منهاج البلغاء وسراج الأدباء. لحازم القرطاجني. ط. دار الغرب الإسلامي. بيروت. الطبعة الثالثة. 1986م. ص 260.

﴿لَيُبَطِّئَنَّ﴾ جرسا خاصا حتى إن اللسان يكاد يتعثر حتى يصل ببطء إلى نهايتها(11). وعلى كل فإن ما يمكن أن نسجله هنا أن ما اكتسبه التركيب القرآني في الآيات موضوع الدرس كان متساوقا مع المعنى الكلي ، وكان ذلك في الوقت ذاته ناتجا عن خاصية الكلمات المختارة ، وانصب دور القرآن هنا على محور الاختيار الرأسي في المفاضلة بين البدائل؛ فقي هذا المحور يتخير القرآن من البدائل اللغوية ما يحقق تساوقا مع المعنى؛ فتكتسب هذه البدائل «قوة تعبيرية بحيث تؤدي بها فضلا عن معانيها العقلية كل ما تحمل في أحشائها من صور مذخرة ومشاعر كامنة لفت نفسها لفا حول ذلك المعنى العقلي»(12).

وهناك طائفة من الألفاظ التي استعملها القرآن وجاءت متناسبة في صورتها مع أصدائها في النفس أو السمع ، وكانت الدلالة متناغمة مع الصياغة فمن «الأوصاف التي اشتقها القرآن ليوم القيامة الصاخة والطامة. والصاخة لفظة تكاد تخرق صماخ الأذن في ثقلها وعنف جرسها وشقها للهواء شقا حتى يصل إلى الأذن صاخا ملحا»(13).

وفي هذا الصدد يقول ابن جني: «فإن كثيرا من هذه اللغة وجدته مضاهيا بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر بها عنها؛ ألا تراهم قالوا قضم في اليابس ، وخضم في الرّطب ذلك؛ لقوة القاف وضعف الخاء ، فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى ، والصوت الأضعف للفعل الأضعف»(14).

وعندما نعمد إلى تطبيق ذلك على هذه الآيات فإننا سنظفر بمساحة وافية على صعيد الألفاظ والتراكيب ففي قوله تعالى: ﴿وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ نجد أن الفعل (خر) في هذا الموضع يوحي بكيفية هد الجبال وهدمها وما يصاحبها من أصوات سقوط الصخور وتلاطمها وسرعة ارتطامها. وهذه القوة في التعبير جاءت من التعبير بـ (خر) و(هدا) وهذا عينه ما نلمسه في الفعلين: (يتفطرن) و(تنشق)

11- تنظر. التصوير الفني في القرآن. ص. 78

12- فنون الأدب. تشارلتن. ترجمة. د. نجيب زكي نجيب مجمود. القاهرة. ص. 76.

13- التصوير الفني في القرآن. ص. 79

14- الخصائص. لابن جني. ت. محمد علي النجار. القاهرة. د. ت. ج 1. ص. 65.

كذلك نلحظ أن الفعل (تؤز) هو صدى مطابق لصوت الأزيز الذي نشأ عنه وهو صادر عن صوت الهمزة الانفجاري وصوت الزاي الصفيري.

وإذا تأملنا ما يحدثه جرس الكلمات من خلال تراكيبها ، فإن الأمر ذاته سيتكرر معنا؛ فعندما قال المشركون: اتخذ الرحمن ولدا في الآية ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا (٨٨) لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا (٨٩) تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ حيث يشارك جرس الألفاظ وإيقاع العبارات ظلال المشهد في رسم جو الغضب والغيرة والانتفاض؛ فضمير الكون وجوارحه تنتفض وترتعش وترجف من سماع تلك القولة النابية ، والمساس بقداسة الذات العلية؛ فهذه الانتفاضة الكونية للكلمة النابية يشترك فيها السماوات والأرض والجبال. والألفاظ بإيقاعها ترسم حركة الزلزلة والارتجاف(15).

ثانيا: مستوى الفواصل وإيقاعها

يتحقق للإيقاع تمامه ويصل إلى منتهى مبتغاه عندما تنتهي البنية بفاصلة الدال ذات الجرس الحاد؛ حيث اشتملت الآيات على ثماني عشرة فاصلة دالية إضافة إلى فاصلة الزاي التي وردت ثلاث مرات. وبنظرة فاحصة في هذه الفاصلة نجد أن التحول النوعي الذي حصل بها كان له أثر في التناغم مع التنوع في الموقف الخطابي؛ فما كان من توصيف موقف المشركين أنهم اتخذوا الشركاء لأجل أن يكونوا لهم معزين ، وعبرت الآية بالمصدر لتصوير اعتقاد المشركين في آلهتهم أنهم نفس العز. ثم ما يلبث نظام الفاصلة الدالية إلى العود بعد حرف الردع (كلا) الذي يسهم هو الآخر بدوره بإيقاعه وبمعنى النفي والزجر الذي يحمله في قوة البنية ومتانتها وإمكاناتها على إيصال رسالة الشجب والاستنكار لهذه الجريمة في حق المعبود وما تجره على النفس الإنسانية. ثم يعود السياق مرة أخرى مع حرف الزاي عندما يصور التعبير القرآني حقيقة هؤلاء عندما يأتي الجواب لسؤال يجيش في نفس الرسول ﷺ بسبب تمادي هؤلاء المشركين في ضلالهم؛ فحالهم

15- انظر. في ظلال القرآن. لسيد قطب. ط. دار الشروق. القاهرة. الطبعة الخامسة والثلاثون. 2005م. ج 4. ص. 2320 ، 2321

ليس حال العزة كما توهموا ، وإنما هو حال الهز والاستفزاز الباطني؛ حيث شبه اضطراب اعتقادهم وتناقض أقوالهم بالغليان ، وتأكد الفعل بالمصدر ترشيحا للاستعارة؛ وبذلك جاء التناغم الإيقاعي لفاصلة الزاي (عزا ، أزا) وفقا لطبيعة المشهد الذي تصوره الآيات؛ فحالهم ليس بحال عز ، وإنما هو حال الذلة والمهانة؛ لأن الشياطين التي أرسلت عليهم صرفتهم عن الوحي وأوقعتهم في حبائلها.

ولنحاول أن نستكنه سر الإيقاع بشكل أعمق في قوله تعالى لهؤلاء المشركين: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ فاجتماع الهمزة مع الدال وما ترتب عنه من ثقل في النطق كان له الوقع الحاد على السمع وزاد من هذه الحدة استباق اللفظة بحرف الدال المقلقلة في: (لقد). ولو قدرنا مثلا كلمة مثل: (عظيما) بدل: (إدّا) فسنلاحظ بوضوح فوات الأثر القوي للفظة بما لها من جرس نغمي منسجم مع الموقف التعبيري للآيات. وقد يظن البعض أن الأفضلية لكلمة (إدّا) كانت لمحض مراعاة الفضيلة السجعية فيجعل المعنى بذلك تابعا للفاصلة خادما لها ، لكن هذا الظن سرعان ما يزول عند معاينة الخاصية الإيقاعية ، ويتحول في الحكم إلى العكس من ذلك عندما يظهر لديه أن الفاصلة كان لها الأثر الفاعل في سياقها التعبيري بفضل المنحي التنغيمي لحرف الدال المنفتحة على الألف بعدها. ولعل هذا الأمر هو الذي حذا ببعض العلماء الأوائل أن يرفضوا إطلاق اسم السجع على هذه الظاهرة التي امتاز بها القرآن وباين صنوف النثر واطردت في جميع آيه تفريقا منهم بينها وبين سجع الكهان الذي تستجلب فيه السجعة دون النظر إلى تواؤمها مع المعنى التركيبي ، وأصروا على إطلاق مصطلح: الفاصلة.

ومن زاوية أخرى يمكننا أن نلحظ علاقة الفاصلة بحرف الدال الذي ورد إحدى وثلاثين مرة ، وعندما نضيف إليه حرف الذال الذي ورد ثماني مرات ليصبح العدد تسعا وثلاثين ويسهم هذان الحرفان بشكل بارز في نسيج البنية التركيبية للآيات بصوتها القوي الهادر الذي يترك أثره في النفوس لاستمالتها إلى الحق وتبصيرها بمصير الضالين والمنحرفين عنه. وهذه هي الغاية التي يسمو بها القرآن حيث يجعل من الإيقاع والتعبير الفني وسيلة للتبليغ والتأثير.

ولو أخذنا في التأمل والاستقصاء للسمات الفنية لبنية الإيقاع أكثر لوجدنا الكثير والكثير ، ولا عجب؛ فنحن صحبة نص لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد. لننظر مثلا كيف يجمع القرآن بين الشدة واللين في آن واحد؛ ففي قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ﴾ تطالعنا كلمة (الرحمن) بظلالها الوارفة فرحمة الله التي سبقت عذابه وسعت كل شيء وهي موجودة أينما حللت فياللعجب كيف تقال تلك القولة النابية في حق من هذا شأنه. وهذا الشأن عينه يجري على مستوى إيقاع الأصوات؛ حيث يتحقق إعجاز الإيقاع بالجمع بين اللين والشدة؛ ففي وطأة ثقل الشدات والدالات والألفاظ المرعدة تستوقفنا الفاصلة في: (وفدا) (ودّا) اللتين تختفي فيهما نبرة التقريع التي نلمسها في (ضدا) و (إدّا) وما فيهما من صعوبة في الانتقال من الحرف إلى الحرف؛ فالسهولة التي نلمسها في حركة الواو وانطلاقة الهواء داخل الفم ويسر انتقالها إلى الفاء في كلمة: (وفدا) تشعرنا بسلاسة قدوم المتقين على ربهم وافدين إليه ، كما توحي لنا كلمة: (ودا) بما سيكون للمؤمنين من المودة والتكريم.

وفي سياق آخر نحاول وصف ما نلمسه من عذوبة وجمال في أول السورة لتتم لنا المقارنة بين مقام ومقام؛ فنحن نلاحظ الفرق الواضح بين هذه النغمة المتأججة وتلك النغمة الهابطة في دعاء زكرياء عليه السلام وهو ينادي ربه نداء خفيا عندما تنتهي كل فاصلة في هذا الدعاء بياء مشددة وتنوين يتحول عند الوقف ألفا لينة ، كما نرى ذلك التناسب البديع بين النداء الخفي وبين: (شقيّا - وليّا - رضيّا).

وبهذا يظهر لنا كيف كانت الفاصلة عنصرا أساسيا من عناصر اللغة الإيقاعية وكيف امتاز القرآن بحسن الإيقاع؛ حيث يمكن أن نلاحظ كيف انتقلت هذه الفواصل عبر مراحل السورة وقصصها المختلفة ، من الرخاء والعمق والروية في (رضيّا - صفيّا - نجيّا) إلى الفاصلة المشددة عندما يكون جو العنف والشدة مخيما عليها؛ فيصبح الإيقاع هادرا قويا له رنين حاد (مدّا - ضدّا - هدّا - عزّا) فيتنوع الإيقاع الموسيقي هنا بتنوع الموضوع والموقف.

وفي هذا يقرر الرافعي في كتابه إعجاز القرآن أن « هذه الفواصل التي تنتهي

بها آيات القرآن ما هي إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى ، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب»(16).

ثالثاً: مستوى التماثل الصوتي

ويتصل محور الإيقاع بمحور التماثل؛ فكلما ازداد هذا التماثل ازدادت الطبيعة الإيقاعية التي تؤكد شاعرية الصياغة(17)

وهذا التماثل يتجلى في عدة مظاهر في النص القرآني؛ فنجده أحيانا في تجانس مقاطع الكلمات وتشابه مخارج الحروف أو اتحادها ، أو في اتحاد حركات الحروف وترتب ذلك وفقا لبنية تناسقية تقوم على تكرار المتماثلات بشكل يحدث نوعا من الإيقاع الذي يعد عنصرا أساسيا في إبداعية التراكيب وجمالياتها.

وإذا حاولنا أن نرصد أنماط التماثل في هذه الآيات فسوف نظفر بقسط وافر منها وبما يثبت قيام الخطاب القرآني في جانبه الفني على تقنية التماثل بوصفها آلية للتأثير تزيد في تركيز الشحنات الدلالية. فنجد هذا التماثل قائما في نسيج التركيب التقابلي ، كما في قوله تعالى:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ ــــــــ ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾

ويمكن أن نرصد ذلك في التناظر الصوتي للبناء المقطعي للكلمات وفق هذا الجدول:

رتبة الآية	الفعل الأول	الفعل الثاني	الفاصلة الإسمية
الأولى	كفر	قال	ولدا
الثانية	أاطلع	اتخذ	عهدا

16- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. ص. 216.

17- انظر. بناء الأسلوب في شعر الحداثة. التكوين البديعي. د. محمد عبد المطلب. ط دار المعارف. مصر. الطبعة الثانية. 1995م. ص 364.

الثالثة	سنكتب	نمد	مدا
الرابعة	نرثه	يأتينا	فردا
الخامسة	اتخذوا	ليكونوا	عزا
السادسة	سيكفرون	ويكونون	ضدا
السابعة	أرسلنا	تؤزهم	أزا
الثامنة	تعجل	نعد	عدا

نلاحظ من خلال هذا الجدول أن ثمت تشكيلا إيقاعيا ترتب عن نوع من التماثل في تكرار الفعل وفق مسافات متناسبة بين كل فعلين في الآية وما يسبقهما أو ما يلحقهما وهذا التناسق أوجد هذا الإيقاع الداخلي الذي جلب لهذه التراكيب فرادتها وتميزها.

وقد نجد هذا التماثل قائما في قوة الكلمة المشددة كما في:

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ ـــــــــــــــــ ﴿أَطَّلَعَ﴾

و﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ ـــــــــــــــــ ﴿كَلَّا﴾

كما يمكن أن نعثر على هذا التماثل والتجانس عن طريق التكرار بذكر مصدر الفعل كما في:

﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ ﴿نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾

فلا ريب أن المتأمل في هذه النماذج السابقة ، يلمس هذا اللون من التماثل والتكرار في القرآن العظيم على أبعاد تكسب النظم إيقاعية تزيده جمالاً وحسناً؛ ذلك أنه ما من أحد يشك في أن الجمالية الإيقاعية، تنشأ عن تماثل وتكرار على أبعاد مناسبة لسلامة الجرس، وصحة النغم في بناء اللفظة أو الجملة أو النسق بصفة عامة.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصبه وسلم